موقف الشيخ الندوي من فن التراجم في ضوء مؤلفاته

الدكتور أبو الأعلى محمد حسام الدين ☆

Abstract:

"Translation studies is the most important element regarding the editing of literary human heritage. The following article in focused to the translation vision of Sheikh Abu-al-Hassan Nadvi. Allama Nadvi looks influenced by the past scholars in the field of translation, especially the methodology of Ibn-e-Khallikaan. Moreover, he is also blessed by the contribution of the great scholars belonging to his own family. Sheikh Nadvi determined also the conditions of translation for translators regarding personal recognition, ability of interpretation etc. The purpose of mentioning the strict conditions is to approach the right and real spirit of translation".

Key words: Translation Studies, Literary Heritage, Abul-al-Hassan Nadvi, Ibn-Khallikaan, Personal Recognition.

تعتبر كتب التراجم من أهم المصادر والمراجع التي تعين الباحث على معرفة تطور الحياة الفكرية والأدبية والحضارية للإنسان والأمم على حد سواء.

ولفن الترجمة علاقة وطيدة بحركة التأليف، بحيث ينظر إليه على أنه حلقة من أهم حلقات هذه الحركة، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بمؤلفات القدماء الذين عُنوا بتدوين تراجم الصحابة، وطبقات المحدثين لما لذلك من صلة بأصول الدين والتشريع الإسلامي، ثم امتد هذا الاهتمام إلى العناية برواية اللغة والأدب، فتعددت حلقاته، واتسعت حتى شملت أجناساً من طبقات الرجال والنساء من كتاب وشعراء، ولغويين ونحويين، فظهرت المؤلفات في تراجم الشعراء، وفي تراجم اللغويين والنحاة، وفي تراجم الأدباء عامة.(۱)

وعندما اتسعت رقعة الدول الإسلامية شرقاً وغرباً، وكثر التأليف والترجمة،

☆ المحاضر بقسم الدراسات الإسلامية، للكلية الإسلامية، شيتاغونغ، بنغلاديش.

ودعت الحاجة إلى التخصص، أخذت تظهر مجموعات أخرى من الأسماء، مثل كتب المعاجم، والبرامج، والفهارس، والمشيخات، والوفيات، والصلات، والصلات وصلات الصلة، والذيول، والمؤتلف والمختلف، والمشتبه في أسماء الرجال، ثم ظهرت تراجم خاصة بالزوايا، والجوامع والمدارس والربط والقبائل.. وغيرها،(٢) حتى إن التراجم العربية الإسلامية "فاقت من حيث كثرتها وتنوعها، وافتنانها في ترتيب الأعلام المترجمة، وتبويب موضوعات التراجم، والاهتمام بها حتى في كتب التاريخ العام وكتب الشروح اللغوية، والترجمة لأعيان كل بلد، أو كل مدينة في كتاب واحد، والترجمة لأعلام النساء بجانب أعلام الرجال، وتحقيق الوفيات والمواليد قدر ما سمحت به ظروف حياتهم الاجتماعية، والاستشهاد بآثار المترجم لهم في النثر والشعر وضبط الأعلام، وتحقيق المتشابه منها، قد فاقت في كل ذلك غيرها من التراجم في الآداب الأجنبية الأخرى في القديم والحديث.(٣)

ومن أشهر الكتب: كتب تراجم الأدباء والشعراء، كتاب: طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) والشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦هـ) والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ) ومعجم الشعراء للمرزباني (٣٨٤هـ)، ويتيمة الدهر للثعالبي (٤٢٩هـ)، والذخيرة لابن بسام الشنتريني (٥٢٤هـ)، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (٤٠٣هـ)، والصلة لابن بشكوال (٥٧٨هـ)، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (٧٧٦هـ)، ونفح الطيب، وأزهار الرياض لأحمد المقري (١٠٤١هـ).

ومن أشهر الكتب في تراجم اللغويين والنحاة: كتاب: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (٣٧٩هـ)، ونزهة الألباء لابن الأنباري (٥٧٧هـ)، وإنباه الرواة للقفطي (٦٤٦هـ)، وبغية الوعاة للسيوطي (٩١١هـ).

واشتهر من بين الكتب في تراجم الأدباء: كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٧٦٤هـ)، والوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ).

ولا يخفى أن هذه المؤلفات يمتزج فيها الأدب بالتاريخ: ويتتابع فيها الحدث المرتبط بالذات والوقائع المتعلقة بالجماعة، وتختلف اختلافاً واضحاً عما يكتبه المؤرخون من سرد أخبار الدول والملوك ومتابعة أنباء المعاهدات والحروب، لأن كتب التراجم تعنى بأخبار أفراد الأمة من علماء ومصلحين، ومؤلفين، وكتاب، وشعراء، وقضاة، ومحتسبين، وفقهاء، وقراء، وغيرهم من طبقات الشعب المختلفة.

وقد كان الهدف الأساسي عند هؤلاء المؤلفين هدفاً تعليمياً بالدرجة الأولى، إذ كان

أدب التراجم مادة أساسية في حلقات التدريس، ينقله الدارس من مصادره ويستوعبه، وربما حفظه عن ظهر قلب، ثم أضحى بعد ذلك تراثاً يحفظ آداب الأجيال وعلومها، ويعتبر عندنا اليوم جزءاً من التراث الذي تقوم عليه كل نهضة علمية أو فكرية أو ثقافية.

لقد اعتنى القدماء بتدوين تراجم الرجال حسب تنوع طبقاتهم واختصاصاتهم، وبدؤوا بوضع تراجم الصحابة والمحدثين – كما أسلفنا – وذلك بسبب الحاجة إلى حفظ مآثرهم ومحفوظهم من الأحاديث وأخبار عصر النبوة والخلفاء الراشدين، وتلا ذلك الاهتمام بوضع تراجم العلماء واللغويين والأدباء، وكان للمشارقة فضل السبق في هذا الميدان ثم تبعهم الأندلسيون والمغاربة فألفوا الفهارس والبرامج والصلات والذيول وغيرها.

إلا أن الترجمة في هذه الكتب كانت تقتصر في البداية على التراجم المختصرة للعلماء والفقهاء والأدباء، وذكر أخبار السماع والرواية، وتاريخ الميلاد والوفاة عند الاقتضاء، الأمر الذي يجعلها محصورة في نقل بعض المعلومات والأخبار، وترك أغلبها دون مراعاة خطة محكمة، أو طريقة ثابتة في إعطاء الصورة الحقيقية أو القريبة إلى الحقيقة عن المترجم له.

ورغم ما كان المؤلف يبذله أحياناً من التحري والدقة، فإن التراجم كانت تتعرض للأخطاء بسبب التحريف الذي يلحقها، وقد أشار ابن عبد الملك المراكشي (۷۰۳هـ) إلى هذه الظاهرة المتكررة في كتب من سبقه من المترجمين، سواء منها التي كانت تصل إلى المغرب والأندلس من المشرق أو التي ألّفت في عقر الدار مثل تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وكتاب الصلة لابن بشكوال، وهما المؤلفان اللذان ذيلهما وأكملهما بكتابه المشهور: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة..

واشتهر كتاب "يتيمة الدهر" للثعالبي في المشرق وفي الأندلس، وأخذ بمنهجه سائر المترجمين بعده، واعتمده ابن بسام في "الذخيرة" وحذا حذوه في تقسيمه الرباعي المشهور، كما استفاد منه كثير من الكتّاب والمؤلفين، ولكنهم أضافوا الجديد إلى حقل التراجم بسبب ضرورات العصر وحاجات الناس إلى التجديد، وهذا أمر بدهي في كل عصر ومصر، وهو الأمر الذي سنلاحظه ونحن ندرس أسلوب الترجمة عند مؤلفنا الشيخ أبي الحسن الندوي.

وإذا كانت الطريقة الغالبة في ذلك العهد هي منهج التقسيم الجغرافي للأقاليم، وانتهاج أسلوب السجع، فإنها القاسم المشترك بين المصنفين المشارقة والأندلسيين إلى حدود ابن بسام.

وقد انتبه الدارسون، ومنهم المستشرق الهولندي "دوزي" إلى البوادر الأولى للتحليل النقدي الدقيق في التأريخ والترجمة في كتاب ابن حيان (۴۶۹هـ) شيخ الكتاب في

الأندلس، وهي سمة ميزت أكثر المؤلفين الأندلسيين والمشارقة من الرعيل الثاني، فقد كتب ابن سعيد المغربي (٦٨٥هـ) كتاب: المغرب في حلى المغرب، والتزم فيه نظاماً خاصاً أفصح عنه في مقدمة كتابه،(٤) وانتهج ابن عبد الملك المراكشي نهجاً جديداً في التراجم لم يسبق إليه، بحيث أصّل قواعده وحدد ضوابطه، وميزه عن التاريخ المحض، وعن فن السيرة الذاتية، وجعله فناً قائماً بذاته، وبناه على القواعد والعناصر التي تلتزم الدقة والتحري في عرض الأحداث ونقل الأخبار.(٥) وكان أحمد ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) وكتابه: وفيات الأعيان آية في الوصف الدقيق، وشمولية الخبر، ووضع الصفة مكان الموصوف، حتى قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي: "فإنه إذا وصف أحداً من المترجم لهم بقوله: النحوي، أو الفقيه، أو الأديب، أو المفسر، أو اللغوي، أو الواعظ، فليس من الميسور زحزحته من مكانه الرئيسي والاختصاصي، ووضعه في طبقة أخرى.(٦)

ودرج على هذه الطريقة أغلب المترجمين الذين جاؤوا بعد هذه الفترة مثل ابن شاكر الكتبي (٧٦٤هـ) في كتاب "فوات الوفيات" وصلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ) في كتاب الوافي بالوفيات" وربما كان لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ) أكثر دقة وإلحاحاً على الخبر من سابقيه، بحيث يظل دقيقاً مع مترجميه في إثبات اسمه، ونفسِه، وكنيته، ومولده، ووفاته، وحاله ومشيخته، وتلاميذه وكتبه ومؤلفاته ونظمه ونثره، ودخوله غرناطة—وهو شرطه- وربما تحدث عن أوليته وعن محنته وإذا ترجم لأمير أو قائد، فهو يذكر أوليته وحاله، وصفته وأولاده، ووزراءه، وكتابه وقضاته، والملوك على عهده، ومناقبه، وجهاده، وحروبه، وبعض ما رثي به من الشعر.

هذه العناصر هي التي كانت شائعة ومميزة لأدب التراجم في القرون المتأخرة مع بعض الاختلاف والتباين في الأخذ بها من طرف المؤلفين.

ولا نكاد نصل إلى عصر أحمد المقري (١٠٤١هـ) حتى تتداخل عناصر التاريخ العام وعناصر التراجم والسيرة في كتاب نفح الطيب وأزهار الرياض، قبل أن يغلب الطابع المعجمي على التراجم على حد ما نجد في "كشف الظنون" عند حاجي خليفة والأعلام للزركلي.

منهج أبي الحسن الندوي في التراجم ومعالم التجديد

تأثر الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابة التراجم بمن سبقه من المؤلفين، وأشار بالخصوص إلى طريقة ابن خلكان، واستهوته هذه الطريقة، ولعله استفاد منها قبل أن ينصرف إلى منهجه الذي ارتضاه لكتابة التراجم، كما أشاد بأديب الأندلس الشهير، وشاعرها لسان الدين بن الخطيب، وعمله الجليل في تدوين أخبار دولة غرناطة ورجالها في كتاب: الإحاطة، وأثنى على كتاب: نفح الطيب لأحمد المقري وأهميته في تدوين أخبار المغرب والأندلس، وفي معرض حديثه عن الرجال الذين عنوا بالتدوين والتأريخ للرجال ذكر المقريزي (٨٤٥هـ) وكتاب:

المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (خطط مصر)، وأشار إلى ابن عساكر (۵۷۱هـ) صاحب كتاب: تاريخ دمشق، وتحدث أيضاً عن حاجي خليفة زادة، والأستاذ محمد كرد علي وكتابه القيم: "خطط الشام" واعتبر أن هذه المصادر التاريخية والمؤلفات الأدبية هي بمثابة دوائر معارف(۷) تحفل بتاريخ الأمة الإسلامية، وتخلد ذكر علمائها وعظمائها ورموزها.

وبالنسبة للهند، فقد كانت هي أيضاً في حاجة إلى مؤرخ للرجال كابن خلكان، ومستعرض للتاريخ كحاجي خليفة جلبي زادة، ووصاف كالمقريزي حتى تُوَفّى هذه البلاد—التي كثر فيها الرجال، وازدهر فيها العلم واتسعت فيها المدنية - حقها من التاريخ والتسجيل والتصوير، وقد وفق الله العلامة السيد عبد الحي بن فخر الدين الحسني (۱۳۴۱هـ) لمثل هؤلاء الثلاثة العظماء فيما يختص بالهند ترجمة وتاريخاً واستعراضاً وتصويراً(۸)

وتأثر أيضاً فيما كتب من التراجم، وفي سائر الكتابات الأخرى بمجموعة من المؤلفين الذين تتلمذ عليهم، أو قرألهم، فهو يتحدث عن العلامة: السيد سليمان الندوي، وطريقة إخراجه الجديد للسيرة النبوية عندما نقلها من نطاق السيرة والتاريخ إلى معالجة منصب النبوة والعقائد والعبادات والأخلاق بزاوية جديدة ودراسة مقارنة.(۹)

وكان لأخيه الأكبر ومربيه الأمثل، بالغ الأثر على شخصيته وخطة تعليمه وثقافته، وكانت توجيهاته الحكيمة، وتعليماته الهادئة أنفع له من مائة كتاب.(۱۰)

وكان جده العلامة فخر الدين الحسني من السابقين إلى وضع كتاب في تراجم الطبقات الصوفية والعلماء والشعراء في الهند، ووضع والده العلامة السيد عبد الحي الحسني "أكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية بتراجم الرجال الذين نبغوا في الهند منذ القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف (۱۳۴۱هـ) – (۱۹۲۳م).. ويتناول الأعيان من كل طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية واتجاهاتهم العلمية، واختصاصاتهم الفنية، فقد ظهر في ثمانية مجلدات كبار يحتوي على أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة من التراجم، وهو أشبه في أسلوب الكتاب ومنهجه وتعبيراته بابن خلكان في الدقة والأمانة، وتحري الصدق والقياسات اللائقة والدقيقة في تخير الأوصاف والنعوت".(۱۱)

وقرأ هذه المجلدات كما قرأ كتباً أخرى(۱۲) في سن مبكرة لأنها كانت في متناول يده، فعرف أنواعها وخبر مناهجها وأساليبها وشغف بفن الترجمة وكان شغله الشاغل حتى قال: "كان أدب التراجم والسير من أحب الآداب وأخفها وأسهلها لي، وكانت هوايتي وشغلي الشاغل في سن قلما يتيسر فيها الكتابة لكثير من هواة الأدب والإنشاء، فبدأت أؤلف في تراجم الرجال وسير النابهين من العلماء والمصلحين بالعربية قليلاً، وبالأردية أكثر، وتكون من هذه التراجم والسير

مكتبة لا بأس بها في كتب التراجم وسير المصلحين والمجددين في الإسلام، والدعاة والمربين الذين نفع الله بهم الأمة ونهضوا بها في مختلف الأدوار والأمصار". (۱۳)

من الواضح إذن أن المؤلف كتب بالأردية الشيء الكثير في التراجم ولكن عدم اطلاعنا على هذه الكتب يجعلنا لا نحيط بالصورة الشاملة لما كتبه الشيخ الندوي في هذا المجال، إلا أن ما وصل إلينا من الكتب المترجمة إلى العربية في التراجم والسير، وكذا الإشارات الكثيرة إلى التراجم الأردية المبثوثة في كتبه، تجعلنا نتلمس الطريقة التي عالج بها الكاتب هذا الفن، لأن الهدف عندنا ليس وضع إحصاء لهذه المؤلفات، بقدر ما يرمي إلى النظر في أسلوب هذه التراجم وخصائصها.

فقد صدر له كتاب: شخصيات وكتب يشتمل على مجموعة من التراجم لشخصيات إسلامية مرموقة في شبه القارة الهندية والعالم العربي بدءاً بالشيخ محمد إلياس الكندهلوي وانتهاءً بالدكتور مصطفى السباعي. وفي هذا الكتاب يظهر بوضوح منهج كتابته في التراجم، وتبرز ملامح التجديد فيه بالمقارنة مع ما نعرفه عند الأقدمين، وفي مقدمة الكتاب، يتحدث المؤلف عن اهتمامه بالتراجم ويضع منهجاً أو "شروطاً" لكل من يقدم على كتابة التراجم.

فهو ينبه أولاً إلى الفرق الطبيعي بين كتب التاريخ والتراجم، بحيث: "إن المؤلف في كتب التاريخ والتراجم وكتب الحياة الشخصية، يكون ممثلاً عن تلك الشخصيات التي يكتب عنها ومحامياً لها ومدافعاً عنها... ويكون هو حراً طليقاً في الكتابة عن صيانة نفسه وممثلاً لذاته ومتحدثاً عنها". (۱۴)

أما في كتابه "رجال الفكر والدعوة"، وهو الدراسة التي أصدرها ضمن سلسلة تاريخ الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي فلا نكاد نميز بين فنين اثنين متداخلين هما: فن الترجمة وفن السيرة، ففي الوقت الذي يخصص الجزء الأول لترجمة طائفة من المصلحين والعلماء المسلمين وهم عمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وأحمد بن حنبل، وأبو الحسن الأشعري، والإمام الغزالي، وعبد القادر الجيلاني، وجلال الدين الرومي، يفرد الجزء الثاني لحياة الحافظ أحمد بن تيمية. والجزء الثالث لسيرة الإمام السرهندي، والجزء الرابع للإمام الدهلوي. (۱۵)

وتتوزع تراجمه الأخرى(۱۶) بين مجموعة من كتبه ومؤلفاته، فهو يترجم لفئة من المسلمين في الهند في كتابه "المسلمون في الهند" ويترجم لكبار العلماء والكتاب في اللغة الأردية، في مؤلفه "الكتب التي أفادتني" وله كتاب "المصابيح القديمة" في مجلدين، يشتمل على تراجم عدد من الشيوخ والأساتذة والمعاصرين الكبار والزملاء الراحلين في اللغة الأردية.. وترجم لمحمد الحسني بن عبد العلي الحسني في كتاب: "الإسلام الممتحن" وألف كتاب "إذا

هبت ريح الإيمان" في ترجمة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد و كتاب " المرتضى " في سيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وصدر للمؤلف كتاب بعنوان "مذكرات سائح في الشرق العربي" سجل فيه أخبار الشيخ حسن البنا، والشهيد سيد قطب، ومجموعة من الشخصيات الأخرى.

ومن خلال الاطلاع على بعض هذه المؤلفات، يبدو أن المؤلف يجمع أحياناً بين مصطلح الترجمة بالمفهوم الذي حددناه آنفاً، وبين فن السيرة بمفهومها الواسع الذي يتناول كل جوانب حياة المترجم له، ويميز في ذات الوقت بين السيرة الذاتية التي ظهر منهجها الخاص في كتاب "في مسيرة الحياة".

ونفهم من الفقرات التي نقلها الشيخ الندوي عن مصنف والده: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر الخاص بترجمة أعيان الهند، أن أسلوبه يمضي على شاكلة أدب التراجم القديمة من حيث دقة المعلومات والأسلوب، وحتى في استعمال السجع فيما نقله إلى اللغة العربية، وربما كان اهتمامه بهذا الكتاب عاملاً جعله يقبل على إصداره في طبعة جديدة بعنوان: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام. (١٧)

وحدد الشيخ أبو الحسن الندوي مجموعة من المعايير والشروط لمؤلفي التراجم والسير باعتبارها ليست من الأغراض الأدبية السهلة، أو مواضيع الوصف الهينة، وإنما تحتاج إلى كثير من المؤهلات العلمية، والسجايا الأخلاقية، منها: (١٨)

1- المعرفة الشخصية للمترجم له معرفة واعية ناقدة، سواء عن طريق المعاشرة والصحبة، أو عن طريق الدراسة وتتبع الأخبار، وقد كان المؤلفون القدامى يهتمون بهذا الجانب اهتماماً كبيراً، ويخلعون ألقاباً خاصة على من تجمعهم بهم المعاشرة والدراسة، فيقولون في الأستاذ: شيخنا، وفي قرين الدراسة: صاحبنا، وفي رديف المواطنة: بلدينا.

2- القدرة على التعبير وتصوير أحوال المترجم له، وبيان أخباره وآثاره، ولا يتأتى ذلك إلا بتملك الثروة اللغوية، والقدرة الكافية على تطويع هذه الأداة.

3- الدقة في نقل الخبر، والأمانة عند روايته، والشعور بالمسؤولية والصدق عند إلباس المترجم له لباساً على قياسه.

4- توافر الدافع النبيل، والرغبة الملحة عند كتابة الترجمة أو التعريف بشخصية، للدفاع عن المترجم أو رد الاعتبار له، أو الوفاء له بالفضل.

5- اختيار الكلام المعبر عن حقيقة المترجَم له، ووضع الكلمات والمصطلحات في مكانها لتدل على الوصف المناسب، أو الذكاء، أو قوة الشخصية أو الدرجة العلمية المناسبة.

إن الغرض من هذه المعايير كلها هو تحرّي الدقة والصدق عند الحديث عن عالم أو

داعية إسلامي أو مصلح أو مجدد، بعيداً عن التزلف والرياء، ووصف الشخص بما ليس فيه، والصدق وتبني الحقيقة هما من مواصفات منهج الدعوة الإسلامية ودعائمها، ولقد كتب الشيخ أبو الحسن الندوي في كل مجال يتعلق بقضية الدعوة، وكانت هذه المسألة الدعوية من وراء هذا الزخم الهائل من الدراسات والمؤلفات والرسائل المختلفة، فمن يقرأ له في الفكر الإسلامي وقضايا المسلمين يجده باحثا ومحققا إسلامياً ثاقباً، ومن يقرأ له في العمل الدعوي يلقاه داعية عظيماً، ومن يقرأ له حول أدب التراجم والسيرة والتاريخ يجده موثقاً دقيقاً، وكان اهتمامه بقضية الدعوة ونشرها والعمل من أجلها، والتفاني في إعلاء كلمة الله، والذود عنها، وبذل جميع الجهود من أجل نشرها، مسألة قناعة ذاتية، جاءت نتيجة النظام التربوي العام الذي نهل منه المؤلف، ومن النشأة الإسلامية الصافية التي نشأ عليها، ومن النمط الثقافي الأصيل والمعاصر الذي تلقاه وصقل مواهبه، لذلك اصطبغ هذا الطابع بجميع مقالاته ومؤلفاته، وارتسم في كل أفكاره وخطبه، ولذلك أيضاً ظهر هذا المؤشر فيما كتبه في أدب التراجم بحيث تبدو أهداف الدعوة واضحة ظاهرة، وسواء تعمّد المؤلف ذلك أم لم يتعمده، فإن نَفَس الدعوة إلى التجديد يتماشى جنباً إلى جنب، مع كلمات وفقرات التعريف بحياة المترجَم له.

إن غزارة المعارف والعلوم عند الشيخ الندوي، واتساع ثقافته التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وكثرة كتبه ومؤلفاته تستدعي منه تجديداً في موضوع الفكر الدعوي ووسيلة تبليغه، في أنواع الفنون الأدبية التي يمارس الكتابة فيها، أو أنواع العلوم الأخرى التي يعالج قضاياها، ومن ذلك أدب التراجم.

إن عنصر التجديد في التراجم عند الشيخ الندوي قائم على معطيات جديدة استحدثها العصر الذي نعيش فيه، واقتضتها ضرورة المسؤولية والأمانة التي يعمل من أجلها، فإذا كان المؤلفون في القديم يعتمدون على جملة من المعلومات التي تتألف منها الترجمة، كتحديد الاسم والنسب، وذكر الجد الأعلى إمعاناً في التحري والضبط، وذكر اللقب والكنية وسنة الميلاد والوفاة، وبعض أعمال المترجم وأشعاره، وما إلى ذلك من العناصر التي سبقت الإشارة إليها—في هذا البحث- فإن المشتغلين بالتراجم اليوم قد أغنتهم دفاتر الحالة المدنية المستحدثة والمضبوطة من الوقوف على كل هذه المعلومات بالنسبة للمترجمين الذين يعاصرونهم من الشيوخ والأقران والتلاميذ، كما أن المؤلفات الكثيرة والمعاجم الأدبية المتوافرة في الخزانات والمكتبات العربية والإسلامية تعفي هؤلاء من تكرار ما ورد فيها بالنسبة لمن ترجم لهم من الأقدمين، ثم إن اهتمام الإنسان بقضايا الجماعة أكثر من مشكلات الأفراد في الوقت الحاضر أدى إلى تغيير موضوع الخطاب وأسلوبه على السواء.

من هنا نرى أن أدب التراجم عند الشيخ أبي الحسن الندوي ينهج نهجاً جديداً يختلف عن الأساليب القديمة ليناسب الفكر المعاصر، ويخاطب العقلية الحاضرة ويؤدي الوظيفة والغاية التي أنشئ من أجلها، دون المساس بعناصر الأصالة، لذلك لا نعتبر الجهود التي قام بها المؤلف في التراجم عملاً يستهدف الترجمة لذاتها – كما كان الشأن في القديم - ولا يقف عند حدود التعريف بالعلماء والأشخاص الذين يتحدث عنهم، ولكن نرى أن جهده هذا إنما يقوم سنداً لعمله الدعوي ولفكره الإسلامي، يخدمه ويعاضده، وهو يشير إلى ذلك عندما يقول: "وهي مجموعة مقالات في التراجم – يتعرف بها القراء على تراجم هؤلاء الفضلاء والعاملين لرفع شأن الإسلام والمسلمين والمربين الكبار وقادة أكبر الحركات الإسلامية في عصرهم، ويترحمون عليهم، ويدعون لهم، ويتعلمون منهم الكثير من الإخلاص والأخلاق وعلوّ الهمة، والاهتمام بالأمة..".

ولو كان هدفه الترجمة لذاتها، لترجم للنبهاء والخاملين، والمشهورين والمغمورين، وكبار العلماء ومتوسطيهم، والصوفية والفقراء، ولكن الترجمة عنده تشكّل عنصراً مهماً داخل قضية من القضايا الفكرية أو الدينية أو الاجتماعية التي تشغل الأمة الإسلامية.

ليس من الميسور أن نجد عند المشتغلين بأدب التراجم الآن حفاظاً صرفاً على النمط التقليدي الذي كان عليه منذ قرون، لأن هذا الفن أصبح محكوماً بروح العصر الذي نعيش فيه، ولهذا انتشر عمل المعاجم، والموسوعات العلمية، ودوائر المعارف العالمية. ولكن مع ذلك يبقى لهذا الفن أهميته وأصالته، وتشبّث كثير من الكتّاب بأساليبه، والعمل على بعثه من جديد – كما هو الشأن بالنسبة للشيخ أبي الحسن الندوي - وإنه في حلة جديدة وغرض جديد – نظراً للفوائد الأدبية والمقاصد التعليمية والتربوية التي ظل يحملها عبر العصور، وقد كان في فترة من الفترات هو الأسلوب السائد في كتابات القدماء، يستوعب جل العلوم والآداب، ويضم ذخائر التراث، وهو إلى الآن المورد الأساسي الذي يرجع إليه الباحثون والدارسون.

إن المؤلف لا يقتضي أثر القدامى عند تقديم عناصر الترجمة، وإنما يستثمر العناصر الجديدة التي تتسع لفكرته وتخدم هدفه الذي يريد أن يصل إليه، ويجعلها ملائمة لفكرة القارئ، مفيدة لذهنه، محولة لسلوكه، عاملة – بالتالي - على خدمة المثل العليا والمصالح الكبرى للإسلام، فهو لا يركز على اسم المترجم له، وأصله ونسبه، ومشايخه وتلاميذه، وكتبه وشعره ونثره – بحيث ترد هذه المعلومات أحياناً، أو لا ترد بكثير من التفصيل - وإنما يشتغل أكثر بشخصيته الدينية والعلمية، وبأخلاقه وصفاته، ومركزه الإشعاعي في مجتمعه، ومقدار أعماله ومآثره، وتضحياته وجهاده في سبيل الإسلام، فيحلل هذه العناصر تحليلاً ضافياً يجعل القارئ

يزداد حباً بهذا الشخص، وعرفاناً بخدمته للإسلام والمسلمين، واعترافاً بدوره ومنزلته في المجتمع، ثم يربط ذلك بأحداث العصر وقضايا الأمة الإسلامية التي ينجذب إليها القارئ والمتتبع، ويصوّر تأثر المترجم له وتأثيره في هذه الأحداث والقضايا، ليصبح بعد ذلك قدوة يُتّبع ونبراساً يحتذى، ولذلك نعتبر أن أدب الترجمة عند الشيخ الندوي ليس موجهاً للمتخصصين في هذا المجال يعودون إليه عند الحاجة أو عند البحث في حياة الأشخاص، وإنما هو أكثر من ذلك موجه إلى الفئات القارئة المهتمة بشؤون الإسلام والمسلمين، والشخص المترجَم له هنا من العلماء أو الرواد أو المجددين قديما وحديثا لا يقدّم كشخص يعرف به لمجرد التعريف، أو الاطلاع على مآثره الأدبية والعلمية بقدر ما يقدم كموضوع أنموذج للمعرفة، ومجال واسع للتعلّم والتربية، ومدرسة في العمل من أجل الإسلام والدعوة إلى الله.

إن القدرة التي منحها الشيخ أبو الحسن الندوي على النظر الثاقب، والوصف الدقيق، تجعله يكتب ترجمة للأشخاص الذين عاصرهم وعاش إلى جانبهم، أو سيرة عن الأعلام والمصلحين الذين يُقتدى بهم، فيقدم عنهم صوراً دقيقة عن البنية الجسدية، والهيئة النفسية والمكانة العلمية، وينظر إلى هذه المساحات نظرة الخبير العارف، ورؤية عالم النفس المقتدر، وفراسة المؤمن المتمكّن، فيبسط أمام القارئ هذه الصفات السمحة والأخلاق الكريمة، والهمم العالية، والأعمال الجليلة، والتضحيات العظيمة، مما يتصف به المترجم له، ويحببه الكاتب إلى القارئ الذي لا يملك إلا أن تسمو نفسه، ويعتز بنسبه إلى الإسلام ورجاله، ويصبح عضواً عاملاً وفعالاً في حقل الدعوة وإنه أسلوب قويم في التربية نستخلصه من دروس الشيخ الندوي في الترجمة.

وإذا كنا نعتبر كتاب: شخصيات وكتب نموذجاً لعمل التراجم، وكتاب: رجال الفكر والدعوة نموذجاً للتراجم والسيرة في آن واحد، فلابد أن ننظر في بعض التراجم والسير في هذين النموذجين، فالدارس لترجمة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي(١٩) أو الشيخ الحديث محمد زكريا الكاندهلوي(٢٠)، يسترعيه الوصف الدقيق للجوانب الخلقية والخُلقية للمترجَم له، والترتيب المتدرج لذكر تاريخ الميلاد والنسب والشيوخ والمنزلة العلمية، والجهاد في سبيل الدعوة وتاريخ الوفاة، ويستهويه من جانب آخر التركيز على جانب الدعوة، والبحث عن الطريقة الملائمة للجهاد في سبيلها، وهذا الأسلوب يذكرنا بطريقة لسان الدين بن الخطيب في الترجمة عندما يقدم صوراً عن أساتذته أو تلاميذه، ومن هم حوله من الأشخاص بتلك النظرة الثاقبة والوصف المتناهي في الدقة حتى لا يكاد يمحى من الذاكرة.

ولكن الشيخ الندوي ما التزم دائماً بترتيب العناصر المؤلفة للترجمة في سائر تراجمه،

فعندما تحدث عن الأستاذ حسين أحمد المدني [۲۱] أو الأستاذ السيد سليمان الندوي [۲۲] يخرج عما رأيناه في الترجمة الأولى، ويصبح القارئ أمام نسيج من الحديث عن الذكريات المرتبطة بالمترجم له وعن الأعمال التي قام بها في مجال السياسة أو في مجال الدرس والدعوة، واكتفى ببعض الإشارات المقتضبة من الأوصاف الجسدية التي يوردها في آخر الترجمة، وهذا ينسحب على معظم تراجم الكتاب. وهو الأمر الذي يشجعنا على إثبات الرأي الذي ذهبنا إليه، وهو تقديم المترجم له في صورة أنموذج للعمل الدعوي أكثر من تقديمه في صورة ورقة تعريف.

وعندما ترجم لأخيه السيد عبد العلي الحسني قدمه في صورة حدث عظيم هز أرجاء العالم الإسلامي، وهز مشاعر المؤلف الذي ينقل هذا الإحساس إلى نفس القارئ ويشعره بأهمية الحدث. قال مثلاً: "في اليوم الحادي والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٨٩ هـ (السابع من شهر أيار مايو ١٩٦١) فقدنا علماً من أعلام العالم الإسلامي ونادرة من نوادر الأيام في الجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ومحاسن القديم والجديد". [۲۳]

وبعد ذلك عرف به تعريفاً شاملاً وذكر مشاهير أسرته، وما اشتهرت به في مجال العلم والمعرفة، ثم تحدث عن نشأته وعن مسيرته العلمية، والدرجات التي نالها وحظي بها، والأعمال الجليلة التي قام بها في حياته العملية.

ومثل هذا التأثير أوقعه المؤلف في ذهن القارئ وهو حدثه عن ترجمة الدكتور مصطفى السباعي عندما قال: "مات مصطفى السباعي.. بهذه الكلمات فوجئنا أمس إثر إحدى جلسات مجلس إدارة المركز الإسلامي في جنيف.. ولكن هل درى الناعي وهل شعر الناس بما وراء هذا الحادث من معان وتأثير في المجتمع الإسلامي وفي آفاق العلم، والدعوة والجهاد؟". [۲۴]

إن اختيار الشيخ أبي الحسن الندوي لهؤلاء الرموز من رجال الفكر والدعوة الذين نذروا أنفسهم لخدمة الدين وإعلاء كلمة المسلمين من أصحاب التأثير العلمي والديني، والأخلاقي — رغم وجود الفوارق الزمانية والمكانية بينهم — أدخل في نطاق البحث عن أساليب وتجديد الدعوة الإسلامية، ووضع السبل لهذه الحركة التجديدية ومحاولة دفعها إلى الأمام لمقاومة التيار المادي الغربي الذي يعصف بالدول والمجتمعات الإسلامية.

ولذلك كان يرى المؤلف أن "خير وسيلة لإشعال المواهب وإثارة الروح وتقويم الأخلاق والعزم على مكافحة البيئة الموبوءة والمجتمع الفاسد، والتسامي لمعالي الأمور هي سير عظماء الرجال، وزعماء الإصلاح والتجديد، والربانيين والصديقين." [۲۵]

فلقد كان عمر بن عبد العزيز أعدل أمير للمسلمين وأصفاهم سيرةً في تاريخ الإسلام بعد الخلفاء الراشدين إلى الآن، ومن حق الشيخ الندوي أن يجعل منه قدوةً وزعيماً للإصلاح

والتجديد في القرن الأول. وطبقت شهرة الإمام الغزالي الآفاق، فكان متكلماً وناقداً للفلسفة، ومصلحاً اجتماعياً كبيراً، وكان العلماء المسلمون ممن ترجم لهم المؤلف من كبار رجال الدعوة والعزيمة والجهاد في تاريخ الإسلام، وكان الشهيد حسن البنا وسيد قطب من أكبر الداعين المصلحين في الشرق العربي الذين قاوموا فساد السلطة وفساد الأخلاق، وأحدثوا في المجتمع الإسلامي ثورة إصلاحية تجديدية.

وعندما كتب الشيخ الندوي ترجمةً لعمر بن عبد العزيز، بل جزءاً من سيرته، ما التفت كثيراً إلى عناصر الترجمة المعهودة عند المترجمين، وإنما اعتنى بالجوانب الأخرى التي تتصل بمواقفه الرائدة في إصلاح نظام الحكم وإخضاعه للتشريع الإسلامي، بدل قوانين الفرس والروم، وذكر بأخلاقه الإسلامية النبيلة التي كان عليها الخلفاء الراشدون والسلف الصالح من القناعة والاقتصاد وإشاعة الفضل بين طبقات الأمة، والتي تعد مرجعاً زاخراً للمثل العليا.

وفي ترجمة أحمد بن حنبل مهد بالحديث عن المعتزلة وآرائهم، ومسألة خلق القرآن، وحمل الرعية على الاعتقاد بذلك بتعضيد من المأمون خليفة الدولة العباسية، وما تعرض له الناس من امتحان حول هذه المسألة الكلامية بما في ذلك الفقهاء والقضاة وعامة الشعب، وفي ظل هذه الأزمة والمحنة كان لا بد من إيجاد مخرج من المأزق، وظهور مرشد يوجه المسلمين إلى الطريق الحق، ويدافع عن السنة وينصر الملة، فكان ظهور أحمد بن حنبل—وهكذا ترد ترجمته في سياق قضية كبرى من قضايا الفكر الإسلامي، وهي قضية خلق القرآن وما نتج عنها من محن. ثم انتصار الفكر السني المعتدل على المذهب الفلسفي في النهاية.

وجاءت ترجمة أبي الحسن الأشعري في طي قضية أخرى هي التحول الهائل الذي حصل في عقيدته الاعتزالية بعد اعتناق دام أربعين سنة، وتبنيه لمذهب أهل السنة، وما نتج بعد ذلك من تغيير في المواقف وتحول في علم الكلام، وكان بمثابة تركيز للسنة المحمدية الأصيلة، ودفع لكل ما هو خارج عنها.

ويستعرض الشيخ الندوي – في ترجمته للإمام الغزالي - قضية تهم التحول الذي حصل في شخصيته عندما حاول البحث عن العلم اليقيني، وتحول من عيش الرفاه والشهرة والجاه إلى حياة الغرباء والفقراء، وهو يعاني ذلك الصراع في الواقع انعكاساً للخلل الحاصل في المجتمع الإسلامي الذي كان يبحث عن الإصلاح والعودة إلى المنبع الصافي. وللقارئ أن يستنبط من هذه الترجمة إشارات المؤلف إلى صفاء الإسلام من الشوائب التي علقت بسائر العلوم التي حصلها الغزالي مثل علم الكلام والفلسفة، وعلوم الباطنية ومذهب التصوف. وقد تحقق ذلك لدى الغزالي، ولذلك عمل الشيخ الندوي على تقديم هذه الشخصية الإسلامية

الكبيرة إلى القراء كشخصية لها دورها في تاريخ الإصلاح والتجديد، وأدى الغزالي رسالته كعالم وناقد ومصلح ومتعلم وداعٍ.(٢٦)

إن نظرة الشيخ أبي الحسن الندوي إلى قضايا الإسلام من خلال تراجمه للأعلام والمصلحين، نظرة شمولية من حيث المكان والزمان، فهو ترجم لعمر بن عبد العزيز في القرن الأول الهجري المتوفى سنة ١٠١ للهجرة، كما ترجم للدكتور مصطفى السباعي في القرن العشرين الميلادي المتوفى عام ١٩٦٤م. فهو ما التزم بالتسلسل التاريخي، وما ميز قطراً إسلامياً دون آخر. كما أن تراجمه تمتد عبر مساحة العالم الإسلامي كلها من شبه القارة الهندية إلى الأقطار العربية في مصر والشام وفلسطين والأقطار الإسلامية الأخرى، حيث نقل من جانب إلى قراء العربية مآثر العلماء المسلمين في الهند وتضحياتهم في سبيل الإسلام، ونقل من جانب آخر إلى الهند أخبار المصلحين والرواد في العالم العربي. ولقد كان من الصعب أن يتعرف العرب والمسلمون بشكل عام على هذه الجماعات والأسر الهندية المسلمة التي نبغت في اللغة العربية، لولا تراجمه لأعلام الهند وصلحائها.

الهوامش

١۔ أمجد الطرابلسي, حركة التأليف عند العرب, دون تاريخ ومطبعة, ص ١٧٥

٢۔ حركة التأليف عند العرب, المرجع السابق, ص ٢٢٩

٣۔ محمد عبد الغني حسن, التراجم والسير: سلسلة فنون الأدب العربي, دار المعارف بمصر, سنة ١٩٦٤م, ص ١٢

٤۔ ابن سعيد المغربي—تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف ١٩٧٨م, ص-٢٤٦

٥۔ ابن عبد الملك المراكشي. تحقيق محمد ابن شريفة, الذيل والتكملة, السفر الثامن. القسم أ (مقدمة المحقق).

٦۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ٧

٧۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ١٨٦

٨۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ١٨٩

٩۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ٥٦

١٠۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ٧٠

١١۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ٨

١٢۔ انظر نفس المرجع: ص ٨۔٩، الوردة الرشيقة. ذكرى الأيام الماضية.. إلخ.

١٣۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ٩

١٤۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة, المرجع السابق ١/٢٥

١٥۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ١٢١

١٦۔ جميع هذه الإشارات وردت في مؤلفه: شخصيات وكتب.

١٧۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ١٥٩

١٨۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ٦۔٧

١٩۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ١٥

٢٠۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ١٤

٢١۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق ٢٣

٢٢۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق ٥٥

٢٣۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق ٦٣

٢٤۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب, المرجع السابق, ص ١١٣

٢٥۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام, دار القلم الكويت, سنة ١٩٧٦م, ص ٦

٢٦۔ الشيخ أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة,, المرجع السابق, ص ١٨٢